ذكرى جان جاك روسو

(تابع ما قبلهُ)

(٩) النقد الفرنسوي وروسو

اما الفرنسويون الذين تفرغوا لدرس روسو منهم بزونتيير وسانت بيف وكلاهما تكلم عنهُ عرضاً اثناء البحث في تاريخ آداب اللغة الفرنسوية ولم يقولا عنهُ خيراً كثيراً لان الناقدين الفرنسويين مصابون بداء الغمز واللمز غمست الطبيعة اقلامهم في مداد السخرية ومعظمهم يهدمون ولا يبنون على التشييد ولهذين الناقدين ثأر قديم في عنق روسو لانهُ ليس فرنسوياً الاَّ بلسانهِ وقلمهِ ولكنهُ ترك اعظم اثر في فرنسا. اضف الى هذا ان هذين الناقدين هما من صفوة اواخر القرن التاسع عشر وكانا يطبقان طرق البحث العلمية في نقدهما وهي طرق ذات قوانين لم يدركها روسو. كان روسو كاتب الوجدان يحادث القلوب ولكن الجيل الحاضر يطلب كتَّاباً يحادثون العقل. ولا ريب في ان رجلاً يكتب عشرين صحيفة في وصف امرأة قبل محادثتها واربعين في الكلام على كوخ صغير لا يروق في نظر ابناء هذا العصر. ثم ان رجلاً يكشف عن نفسهِ كما يكشف عن بدنهِ ويدعو الناس لمشاهدتهِ والضحك منهُ والبكاء عليهِ لا يكون محبباً في عصر يستلزم اخفاء شخصية الكاتب على قدر الامكان. كان روسو يكتب عن نفسهِ وعن عواطفهِ وعن تجاربهِ عن ملاذهِ وعن آلامهِ عن حسناتهِ وعن سيئاتهِ عن عواطفهِ وشجونهِ والمدارس الادبية الجديدة تقتضي ان يكتب الكاتب عما يشاهدهُ في غيرذاتهِ بعيداً عن نفسهِ قدر المستطاع. فهناك اذن خلاف في المبدأ بين روسو وبين ناقديهِ السابق ذكرهما

اما اميل فاجيه العضو الشهير في الاكاديمية ومؤلف الاربعين كتاباً في علوم وآداب شتى فان رأيهُ في روسو لا يمكن ان يكون حجة لانهُ ليس حجة في شيء الاَّ في نحو اللغة الفرنسوية وقواعد اعرابها ووزن جملها وتنسيق الفاظها وعدا ذلك فهو بحاث عام يأخذ من كل شيء طرفاً ولا يتعمق في شيء ومؤلفاتهُ تدل عليهِ فانهُ لم يدون كتاباً علميًّا ولا تاريخاً محققاً انما لهُ ملاحظات على كل شيء وقد دون كتاباً عن روسو مثل الذي دونهُ لامارتين لا عن شغف واعجاب ورغبة

صادقة في البحث في روسو ومؤلفاته ولكن كمالف لامارتين كتب في تاريخ الترك. اننا نجد روح لامارتين في مؤلفاته التي اعدتهُ لها الطبيعة بفطرته وقد اعدتهُ للشعر فاقرأهُ في قصيدة البحيرة واقرأهُ في سواها ولكن لا تحاول ان تلقى لهُ علماً نافعاً في مبادىء روسو

اما جول لمتر فكتابهُ في جانب خاص بهِ . لان الظروف التي احاطت بتأليفهِ مدعاة للريب والشك في اخلاص المؤلف وصدقهِ . اقول اولاً ان لمتر لم يكتب كتاباً عن روسو انما سلسلة مقالات قادحة . تناول فيها عقل روسو وعلمهُ وشرفهُ وذمتهُ وعرضهُ ومزق منها ما استطاع تمزيقهُ ولطخ ما استباح تلطيخهُ . واعطى تلك الرسائل صبغة عامة لانهُ القاها محاضرات متوالية على جمهور من مريديهِ ومريداتهِ وقد تحامل فيها على روسو كانهُ عدو لهُ يسعى ويرزق ويحارب. ولكن الشك يتسرب الينا من امرين الاول تاريخ تأليف هذا الكتاب والثاني المناورات التي قام بها هذا الاديب لدى الاحتفال بتمجيد روسو

لقد صار لمتر منذ بضع سنين من انصار الدوق دورليان وهو يعلم قدر نفسهِ وقدر تأثير قولهِ في اذهان البسطاء فلو انهُ قام وناصر مذهباً دون مذهب بمجرد القول المطلق فلربما قلّ انصارهُ ووجد خصومهُ مطعناً ولكنهُ لو سعى في هدم معتقدات الناس في شخص اكبر ممثل للافكار التي امسى لمتر من اعدائها فانهُ لا شك يكون نصيبهُ من التفات القوم اوفر . والامر الثاني وهو ما قام بهِ من محاربة فكرة تمجيد روسو فاننا لو زعمنا اخلاصهُ وتناولهُ الفيلسوف الراحل بقصد البحث ليس الاَّ ما رأيناهُ يكلف نفسهُ عناء المعاداة الفعلية بعد ان مضى اكثر من خمس سنين على كتابهِ . انما كان روسو آلة سياسية يحارب بها الاستاذ لمتر خصومهُ وخصوم دوق اورليان السياسيين وهدفاً للسهام التي يريد تصويبها الى صدور هؤلاء الخصوم

اما الكتب التي وصفها ريتر وادوار رود واميل بوتيبه ففيها ايضاً نظر لان الثلاثة من ابناء وطن روسو وادوار رود سويسري من مقاطعة فو التي عاصمتها لوزان وبوتيبه استاذ الآداب في مدرسة جنيف الجامعة . وهو من ائمة الجمعية الشهيرة التي اسست منذ نيف وعشرين سنة وغايتها استقصاء اخبار روسو وتتبع اقوالهِ وتاريخهِ وتقلب اطوارهِ ونشوء آرائهِ وافكارهِ . ويمكن ان ينسب الى

برقيه شيء من مفاخرة هذا المجد العقلي الذي يشرف بالانتماء الى وطنه وبلده ولكنهُ مع كل ميلهِ الى جانب روسو امين الى العدل من الناقد القداح جول ليمتر

هذه نظرة وجيزة في آراء الذين عنوا بدرس روسو ومبادئهِ ولا نستطيع ان نلم باقوالهم قاطبة . لان حاسديهِ اكثر من ناقديهِ وناقديهِ اكثر من مريديهِ وهذا لانهُ احدث انقلاباً في كل شيء. لاجل ذلك لم يجمع القوم على مدحهِ كما انهم لم يجمعوا على ذمهِ فاختلفت الاقوال وتضاربت الآراء في هذا العبقري واليك شذرات يسيرة مما كثرت عليهِ عرضاً في الكتب قالها المشاهير فيهِ مدحاً وذماً . وقد اردت بها ان تكون انموذجاً لاختلاف الاقوال في شخص واحد كلما طال عهدهُ ازداد عرفان الناس جميلهُ وفضلهُ

(١٠) آراء النقاد مدحاً وذماً

قال احدهم « كان جان جاك طول حياتهِ على وتيرة واحدة ميالاً الى الحق والصراحة والبساطة نيتهُ صالحة فلا يتصنع ما يستر بهِ عيوبهُ ولا ما يظهر بهِ فضائلهُ وعذر قادحيهِ يرجع الى جهلهم بهِ لان الطبيعة لم تهب جميع الناس صفات تؤهلهم لادراك سمو نفس روسو ولا يمكن الحكم على النفوس العالية الا عن يعادلها »

وقال فولتير يذمهُ « انني ابغض كتبهُ وابغض ذاتهُ. ان مؤلف هلويزا الجديدة ليس الا مهذاراً شريراً ومن نكد الدنيا على الفلسفة كون روسو مجنوناً ولكن مما يزيد في الحزن عليها انهُ غير امين » وقال فولتير ايضاً « من الفظائع ان يكتب هلفوت مثل روسو كتاب الفكير ساڤوياري . ان هذا الشقي يسيء الى الفلسفة ولكنهُ بالنسبة الى الفلاسفة كالقردة بالنسبة للبشر » وقال ايضاً « انهُ محتال خطير وشقي يتقى. ماذا ينتظر العالم من هلفوت يقول في كتيب اسمهُ "Je ne sais quel Emile" ان ولي العهد يمكن ان يكون موفقاً في زواجهِ لو انهُ اقترن بابنة الجلاد. ان هذا المجنون الذي لا نستطيع تعليل اقوالهِ لا شك قد انحدر الينا في خط مستقيم من نسل كلب ديوجنس »

ويليق بنا ان نسمي هذا الباب باب المحاسن والاضداد . فقد قال نابوليون بونابرت ان روسو هو الذي اعدّ الانقلاب الاجتماعي السياسي الذي حدث في فرنسا . لله ما اشد حذقهُ وما اعلى كعبهُ في اقامة الحجة وما اجل اسلوبهُ في

« نوئيل هلويز » ولكنهُ اخفق في ابحث اكثر مما كان ينبغي لهُ . انهُ صوّر لنا الحب في شكل الجنون على ان الحب يلزم ان يكون مسرة لا عذاباً اليماً . ان في هذا الكتاب قبساً من النار . انهُ يحرك النفس ويقلقها . الحب الكامل مثل اعلى. لذا كان العاشقان الموصوفان في كتاب روسو من عالم الخيال لا من عالم الحقيقة

وقال عنهُ ديدرو : انهُ يعلق نفسهُ بالفصاحة اكثر مما يعلقها بالحق ويعنى بالتزويق اكثر مما يعنى بالمنطق لذا تدعني لدى قراءة كتبهِ ولكنك لا تستفيد نوراً . وقال عنهُ كانت الفيلسوف الالماني الشهير : — ان اول ما يشعر بهِ القارىء الجدي الذي لا يقرأ للتسلي او لقتل الوقت انهُ حيال نفس خارقة وذكاء نادر ذي عبقرية صادقة تعذبها رقة عواطفها ودقة احساسها

وقال لامارتين : نفس جدباء لا تثمر فيها الفضيلة ولكنها خصبة بالكلام المصفف والجمل المنمقة . نفس تتظاهر بالتجمل بالفضائل ولكن الرذائل تنهشها. نفس يستر عيوبها الغرور وتلجأ الى عذب الكلام لتخفي مرّ الخصال

وقال ميشليه المؤرخ الفرنسوي الشهير : — ان روسو ابكى الانسانية باعترافهِ وتأملاتهِ. لقد انتصر على العالم بضعفهِ. ان ذلك الصوت الفنيّ المؤثر وتلك الموسيقى التي تصل الى القلب سوف تبلغ قوتها اشدها بعد ان يحجبها القبر عن الآذان . ان ظهور الاعتراف بعد وفاة روسو كأنهُ آهةٌ صاعدة من الجدث الذي ضم رفاتهُ . انهُ عاد الى العالم بقوة اعظم من قوتهِ الاولى محاطاً باعجاب القوم وتعظيمهم

وقال سانت بيف الذي سبق الكلام عليهِ : — ان خطأ روسو لم يكن في نشر اعترافهِ على رؤوس الاشهاد واعتقادهِ انهُ قام بعمل مفرد او بدرس عجيب في اطوار القلب البشري ولكن خطأهُ كائن في انهُ اتم عملاً نافعاً . مثلهُ كمثل الطبيب الذي منحتهُ الطبيعة قصاً سيالاً واسلوباً فنياً فافرغ جهدهُ في وصف مرض عقلي وابدع الوصف بحيث اصبح المرض العقلي معيباً لدى كل من يقرأ وصفهُ ثم عرض كتابهُ على الطبقات قاطبة فيعمي مسؤولاً عن كل الذين جنوا تقليداً او اصابهم عدوى الكتاب

وقال جول سيمون : يظهر لي ان قول بعضهم الاسلوب مرآة الكاتب وُضع لهُ خاصة . وصدق ذلك ظاهر في انك لا تطالع صحيفة مما دونهُ روسو دون ان تعيد على ذهنك كتاب الاعتراف كلهُ الذي وصف فيهِ نفسهُ بصدق واخلاص

وهذا منتهى امنيتي . اراد ان يظهر امام الاجيال القادمة كما يريد ان يقوم بين يدي الله وكتابهُ في يدهِ

وقال موريس باريس : خطر بعقل روسو المستبد بفكرهِ انهُ يستطيع خلق هيأة اجتماعية اصح واقوى من المجتمع الذي يرجع اصله الى ثنايا الدهر العميقة المخفية فاعجب هذه الثقة العمياء بالذات . ان روسو يجهل طرق البحث العلمي فلا يشاهد ولا يلاحظ ولكن يبصر بالاشياء بعين الخيال

وقال الفونس دوديه الكاتب الشهير : لقد وصف تين Taine نفس روسو بانها نفس خادم صغير وهذا الوصف غير خليق بعقل سام كعقل واضعهِ . ان تين يناصر الطبقات الفنية ليخذل الكاتب الفلسفي الذي ثارت نفسهُ ضد المجتمع البشري بعد ان خبرهُ وزهد فيهِ فاعرض عنهُ . اذ كانت نفس روسو صغيرة فما قولكم في نفس فولتير ودالمبرت وديدروه ؟ » اهـ

واني ارى حبل المحاسن والاضداد يطول لو شئنا ان ننقل معظم ما قالهُ انصارهُ وخصومهُ . وقد يشكل الامر على القارىء بعد ان يرى تضارب الاقوال ولذا سأدلهُ على الميزان الذي لجأت اليهِ لاستبانة الرأي الصواب وهو ان ننظر الى من قالوا فيهِ خيراً ومن قالوا ضد ذلك . فنرى لاول وهلة انصارهُ امثال ميرابو ونابوليون وكانت وشيلر وميشليه وجول سيمون وبرنو العالم الطبيعي الشهير اما خصومهُ فاقل قدراً من هؤلاء واليك اسماءهم : ديدروه وسنت بيف وموريس باريس وبرونتير وقد بقي لهُ خصم واحد يناضل بقية خصومهِ وهو شريكه في تكوين الفكر الاوربي الحديث وهذا الخصم هو ڤولتير . وقد نقلت بعض ما قالهُ فيهِ وهو ايضاً يسبهُ ويشتمهُ ولا ينتقدهُ ولا شك عندي في ان غيرة المهنة والمزاحمة على الشهرة الدائمة هما اللتان سببتا هذا العداء الڤولتيري ولكن مهما كان سبب تلك المضاغنة فما هي الفاظ ڤولتير انهُ يقول عنهُ انهُ هلفوت وانهُ شقي وانهُ مهذار وانهُ محتال خطر وانهُ ابن كلب ديوجنس الفيلسوف الاغريقي . ان مثل هذه الشتائم من فم عاتية فيرنيه ذي القامة القصيرة والانف الافعى والبسمة الشيطانية المملوءة بالتهكم والازدراء والخبث والذقن المقوسة غير جديرة بقدرهِ ولا يخشى منها على شهرة جان جاك ذي الوجه المليح والقلب السليم والعقل الراجح

واني اريد ان الفت النظر الى امر مهم وهو اني لست من انصار روسو

المتعصبين لهُ انما حكم عدل بين انصاره وخصومه وناقد دقيق لكتبه ومبادئه ولا اخفي اعتقادي انهُ افاد اهل عصره والاجيال التالية فوائد جمة كما انهُ اضر بها بعض الضرر . لكن من من الحكماء بل اي مذهب لهُ محاسن وليس لهُ اضداد . ومهما تكن نتيجة الحكم على روسو فان القارىء قادر ان يصدر حكماً تمهيدياً في مصلحته وهو انهُ كان رجلا عظيماً وهادياً ومرشداً وكان محباً للحقيقة ساعياً في آثارها ومنقباً عنها وانهُ كان بلا شك اعظم من اعظم اعدائه

محمد لطفي جمعه

بعض المفارقات

اطلعنا على خطبة للسر همفريز بهذا العنوان فاقتطفنا منها ما يلي لما فيهِ من الفائدة والفكاهة

١ — المطر يجفف الهواء

ان قولنا ان المطر يجفف الهواء يظهر في بادىء الامر مناقضاً للمألوف ولكن هذا هو الواقع فان سطح الماء يتبخر دائماً ويصعد الى الهواء فيحمله حسب درجة حرارته ولذلك قلما يخلو الهواء من الرطوبة في الاحوال العادية ولكن اذا برد الهواء او اتفق لهُ ما يحول هذه الرطوبة مطراً عاد الهواء جافاً كما كان قبلما وصل البخار اليهِ ولذلك يصح قولنا ان المطر يجفف الهواء

٢ — مقدار الهواء الذي يرتفع اعظم من الذي يهبط

ان التناقض في هذا القول بيّن جلي لانهُ يخالف المعتقد الشائع القائل ان ما يرتفع يهبط كلهُ ولكي نتمكن من تعليل صحة القول الاول يتعين علينا ان نقسم البحث الى قسمين

اولاً بالنسبة الى الحجم. ان حركات الهواء العمودية ناتجة عن هبوط الهواء البارد الكثيف وارتفاع الهواء السخن الممدد اللطيف . فاذا كانت زنة الهواء المرتفع والهواء الهابط متساوية يكون حجم المرتفع اعظم من حجم الهابط

ثانياً بالنسبة الى الزنة . يظن الكثيرون ان زنة هذين المقدارين من الهواء يجب ان تكون متساوية مهما اختلفت نسبة حجميهما ولكن هذا غير الواقع لان